



التوبة

عودة عقل وثورة وانتصار

آية الله الشيخ علي حقايق

موسم نداءات التوبة الثالث

كتابا مَرَّتَا

تحت عنوان

﴿ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا ﴾ النساء: ١٠٣

التوبة

عودة عقل وثورة وانتصار

آية الله الشيخ علي إسماعيل

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



موسم نداءات التوبة

هذا الموسم يتبناه ويحتضنه المجلس الإسلامي العلمائي، ويعمل على إحيائه سنويًا بمشاركة المؤسسات الأهلية الإسلامية والنشاط المسجدي، وكل محبٍ للدين وخير الإنسان من غياري المؤمنين والمؤمنات في هذا الوطن الكريم.

والمجلس وكل المنابر الواعية تستحثّ عموم المؤمنين والمؤمنات والمؤسسات الإسلامية الأهلية على أرض البحرين للعمل سويًا وبأقصى جهد ممكن لتنشيط وإنجاح موسم هذا العام خدمة لإنسان هذه الأرض، وتصحيحًا لأوضاعه الفكرية والنفسية والعملية، والأخذ به إلى طريق الغاية الكريمة، والسعادة المنشودة في الاتجاه القويم الصاعد إلى الله عزّ وجلّ، والمخرج للإنسان من الظلمات إلى النور، ومن الضعف إلى القوة، ومن الانحراف إلى الاستقامة، ومن بوتقة العبودية المذلة للعبيد إلى فضاء الحرية الفسيح الذي لا تتاله نفس إلا من خلال عزّ العبودية لله الواحد الأحد، واستعطاء الخير والكمال على طريق السعي إليه.

ويوم التوبة هو يوم الزحزحة من النار إلى الجنة، والعودة من الغي إلى الرشد، ومن الضلال إلى الهدى، ومن الغفلة إلى اليقظة، وهو يوم النهوض بعد السقوط، والحياة بعد الموت، والحكمة بعد السفه، والهداية بعد التيه والضياع.

نعم، مستتبع المعصية هو مستتبع لا يعيش فيه إلا الجهل وهو مستتبع موت وسفه وتيه وضياع، ومن أجل أن يتخلص الإنسان من كل هذا لا بد أن يرفع وجهه إلى الله عز وجل وأن يقصد بكل وجوده على طريق الله إليه.

وأجواء هذه الشهور الثلاثة المباركة بمناسباتها الكريمة المتكثرة، وعباداتها المكثفة، وخصوصيتها المعلومة عند الله سبحانه تزيد في قابلية الصحو بعد الغفلة، واليقظة بعد السبات، والهداية بعد الضلال، والذكر بعد النسيان، فليستثمر المستثمر هذا الموسم في هداه وتوبته وأوبه إلى ربه، وفي توب وأوب الآخرين ممن إخوته في الدين فيكون قد حيي بعد موت، وأحيا غيره، ومن أحيا نفساً فكأنما أحيا الناس جميعاً.

فلنعمل على توبة أبنائنا وبناتنا وأهلينا وكل من كانت له صلة بنا، وقيل ذلك فلنعمل جاهدين على أن نحقق توبة صادقة منّا إلى الله تبارك وتعالى.

ولن يقدم أحد إلى نفسه خيراً، ولا إلى غيره كما لو تاب وهدى الغير إلى التوبة، فإنه لا كسب كما لو كسب إنسان ذاته، ولا كسب من ذات لذاتها وهي في إدبار عن الله العلي العظيم.

ماذا تفعل المعصية، وماذا تفعل التوبة؟ (١)

ماذا تفعل المعصية ؟

قال تعالى: ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾. طه: ١٢١.

آدم لم ينحدر عن طريق العصمة، آدم فيما يذهب إليه عدد كبير من المفسرين خالف أمراً إرشادياً، ولم يخالف أمراً مولوياً، الأب بالنسبة للولد له أمران: مرة يصدر أمره له على مستوى النصيحة وبيان ما فيه تجنب المضرة، ومرة يصدر أمره له من باب المولوية والسيادة الشرعية عليه، في حدود ما يكون له من سيادة شرعية عليه عندما يكون تحت ولايته.

الأمر الأول الذي لا يصدر من موقع المولوية - ومن حق الله أن يأمر ومن حق الله أن ينهى، ومن حق الله أن يطاع -، الأمر الأول الذي صدر من باب النصيحة فقط، وبيان وجه المصلحة في الأمور به يسمى أمراً إرشادياً، والولد عندما يقول له أبوه إن في أكلك الأكلة الفلانية مضرة ما، فإن مخالفة الولد لهذا الأمر تسمى مخالفة لأمر إرشادي، لم يمارس الأب هنا ولايته ولا سيادته من خلال هذا الأمر على ابنه، إنما موقفه منه كموقف أي واحد آخر في نصيحته وليس كل من نصح وجب شرعاً اتباع نصيحته، شأن الأب هنا شأن الطبيب عندما ينصحك بتجنب الأكلة الفلانية أو بأنه ينبغي لك أن تتناول الدواء الفلاني، مخالفتك لأمر الطبيب أو نهيها هنا لا يسجل عليك مخالفة في باب الطاعة، ولا تكون هنا منك معصية لأمر مولوي أو نهي مولوي، إنما أنت خالفت مصلحتك التي أرشد الطبيب إلى أن هذه المصلحة لا تتوفر لك إلا بتناول الدواء الفلاني، ولا تستطيع تجنب هذه المضرة الدنيوية إلا بتجنبك الأكلة الفلانية. هنا

(١) خطبة الجمعة (٢٧) بتاريخ ١٧ رجب ١٤٢٢هـ الموافق ١٠/٥/٢٠٠١ م.

سيحصل لك بمخالفة الطبيب، بمخالفة أبيك، بمخالفة الله سبحانه وتعالى، مضرة دنيوية لا تعد خروجًا على طاعة الله سبحانه وتعالى ولا تسجل بها في العاصين وإن كنت تتلقى بها درسًا عمليًا في الحياة يثبت لك أنك حينما خالفت أمر الله الإرشادي أوقعت نفسك في مفسدة دنيوية، أي في مضرة دنيوية...

فآدم عَلَيْهِ السَّلَامُ والأنبياء (صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين)، إذا كانت لهم ما قد نقول عنه هفوة أو ما قد نقول عنه مخالفة فإنما هي مخالفة لأمر إرشادي، وليس لأمر مولوي من أوامر الله سبحانه وتعالى، يعني لم يخالفوا أمرًا واحدًا من أوامر الله عز وجل مما صدر عنه من خلال ممارسته سبحانه وتعالى وإعماله لولايته على الخلق.

لكن هنا ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾ فنجد أن المعصية لها أثر، أثرٌ موضوعي أي حينما عصى آدم ربه سبحانه وتعالى لم يصب ما فيه منفعته في الحياة، خسر ما فيه منفعته في الحياة، الأنفع له في حياته أن يبقى في الجنة وأن لا ينزل لمتاعب الأرض، لكنه حينما خالف فإنه أخطأ تقدير المصلحة فبذلك يكون قد غوى على هذا المستوى، غوى على مستوى مخالفته لما تقدر فيه منفعة حياته الدنيوية.

فهذا أثر للمعصية وكل معصية سواء أكانت معصية لأمر مولوي من أوامر الله، أم لنهي مولوي، أم إرشادي، فإن الإنسان سيجد من خلال هذه المعصية خسارة وعلى أي مستوى من المستويات، خسارة قد تتلم من مستواه الروحي، وقد لا تتلم إلا من حياته الدنيوية.

﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ذَلِكَ بَأْسُهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ
بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ البقرة: ٦١

حين ننظر إلى المقطع الأخير من الآية الكريمة: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ هنا كفر بآيات الله، وقتل للأنبياء بغير الحق، هذا ناتج عن أي شيء؟ ﴿ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ المعصية لله سبحانه وتعالى تجر إلى هذا الحضيض، حضيض الكفر بآيات الله وقتل النبيين بغير حق، وظاهر التعبير أن التعليل الأخير هو تعليل لقوله تبارك وتعالى: ﴿بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ هذا التعليل تعليل لما قبله مباشرة من الكفر بآيات الله وقتل الأنبياء بغير الحق.

إذا المعصية تمثل انحداراً، انحداراً في التفكير، زيفاً في التفكير، انحداراً في المستوى الروحي تلوئاً في الروح، خبثاً في الضمير، ميلاً عن الحق، سقوطاً في إرادة الخير، تعني تأثراً سلبياً في الذات الإنسانية، أي معصية يرتكبها الإنسان تعني أنه يتسافل، تعني أنه ينحدر، يخسر من إنسانيته، يهبط بمستواه، يقزم من قابلياته الروحية، ومن قدرته على الاستقامة، ومن قدرته على التفكير الموضوعي، صحيح أنه عبقرى ولكنه في المسائل التي تصطدم بشهوته لا يفكر تفكيراً موضوعياً، في مسائل الظلم والعدل لا يفكر تفكيراً موضوعياً.

ماذا تفعل التوبة؟

أما التوبة فيقول الله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ البقرة: ٢٢٢.

قبل ذلك نقرأ آية كريمة أخرى في الذين يعصون الرسول (صلى الله عليه وآله): ﴿يَوْمَئِذٍ يُوَدِّعُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصُوا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾. النساء: ٤٢.

يأتي يوم على الإنسان العاصي لربه سبحانه وتعالى، ومعصية الرسول معصية لله، سواءً كانت لتشريع ينقله رسول الله يبلغه رسول الله، أو هي مخالفة لأمر مولوي، لأمر ولائي، لأمر الحاكمية التنفيذية لرسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)، مخالفة الأحكام الولائية لرسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)، والتي يمارس من خلالها حكومته العملية، هي مخالفة لله سبحانه وتعالى أيضاً، هذه المخالفة تعقب شيئاً عظيماً جداً أرايت كيف يودون لو تسوى بهم الأرض؟! يودون أن يكونوا عدماً محضاً، الذي يخالف الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) يتمنى فيه أن لم يكن أبداً، يتمنى أن يتحول إلى شيء عدم، بلا فكر وإحساس ولا شعور، إنه الهول، إنها الكارثة، إنه العذاب الذي لا يطاق، إنها الحقارة التي تجعل النفس تزهد في نفسها.

﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ . البقرة: ٢٢٢

أرايت كيف أن الإنسان العاصي ينسحق ينحدر، يبعد عن الله سبحانه وتعالى مسافات إلى حد البغض والطرده من الله سبحانه وتعالى؟! هذا العاصي بالتوبة تحتضنه الرحمة الإلهية، تكتنفه رحمة الله سبحانه وتعالى، يغسل كل درنه عفو الله سبحانه وتعالى، يعيده طاهراً، يعيده نقياً، يعيده ذاتاً، إنسانية صالحة، فيحبه والله سبحانه وتعالى لا يحب إلا الجمال، فيتحول هذا الإنسان العاصي الشيء القبيح إلى شيء جميل، إلى نفس متألقة، إلى نور من نور الله، بعد أن كان ظلمات بعضها فوق بعض.

يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾، والتطهر أيها الإخوة يكون بدفع الخبث، بدفع النجاسة، بدفع الرجز، ويكون برفعه أيضاً، أنت تقتصر ثيابك لتتطهر وإذا أصاب ثوبك من نجاسة غسلت هذا الثوب هنا، فأنت متطهر، والمتطهرون يديمون التطهر، يستمرون على الطهارة،

دائمًا في دفع ورفع للنجاسة، لا يقبلون أن تخبث أنفسهم، لا يقبلون أن تترجس، لا يقبلون لأرواحهم أن تظلم، هؤلاء متطهرون.

﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْأَمْرُونَ بِالْغَيْرِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾. التوبة: ١١٢

هم أولئك الذين لو استمروا على معصيتهم، لودوا أن تُسوى بهم الأرض بعد أن كانوا يمقتون أنفسهم هذا المقت، بعد أن اشتد عليهم هول العذاب فتمنوا أن يكونوا عمدًا، فإذا هم الفئة الصالحة المبشرة ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾، تابوا فاستحقوا أن يبشروا بالجنة ورضوان الله.

"التوبة تطهر القلوب وتغسل الذنوب" (٢)

نعم - كما سبق - كل معصية رجس، كل معصية تلوث الروح، تظلم القلب، تسد منافذ النور على الذات الإنسانية، كل معصية هبوط، كل معصية ترجس، هذا الخبث وهذا الرين وهذه الظلمات لا بد لها من تطهير، نعم التوبة تطهر القلوب، تغسل عن ذاتك الذنوب، الذنوب ليست ممارسة خارجية مفصولة عن ذاتك، الذنوب تغوص إلى أعماق ذاتك، تلوثها، تحط بمستواها، تقدها قابلية الاستقامة، هذا الأثر السيئ الخبيث لا تغسله إلا التوبة، فاغسل ذاتك قبل أن تغسل ثوبك أيها المؤمن الكريم.

"التائب من الذنب كمن لا ذنب له" (٢)

يعود جديدًا، يعود الوجود الإنساني الصالح، يعود القادر على الصعود إلى الله سبحانه وتعالى بعد أن كان يفقد كل قدرته على خطوة على طريق الصعود،

(٢) ميزان الحكمة، ج ١، عن الفرر. (٢) البحار، ج ٦، ص ٤١.

فإذا به تشط روحه، يندفع قلبه، تقوم استعدادات الكمال في داخله حية فاعلة، لتضعه على طريق الصعود إلى الله سبحانه وتعالى بتوبة صادقة إليه.

ما أدق صراط الطاعة!

ما أدق صراط الطاعة، ولذلك لا ينجو أحدنا من الذنب، إن الصراط الذي تذكره النصوص عن الآخرة، يوجد هنا، وهو صراط الطاعة الذي لا نكاد نستقيم عليه، ما استقمنا لحظة إلا وأصابنا الهزة، وأصابنا الميل لحظة أخرى، وأكبر ما يمتحن فيه المرء في باب الطاعة قلبه، أن يستقيم قلبه على الطاعة، أن تتجه مشاعره إلى الله، أن يريد بالطاعة الخارجية طاعة الله حقاً وصدقاً، أن لا تستلفت الدنيا في صلواته وفي صومه وفي حجه وفي خمسه وفي زكاته، وفي صدقه وأمانته، وفيما يبدو من أعماله من إخلاص لعبادة الله، هذا المستوى مستوى الطاعة القلبية مستوى صعب جداً، والصراط هنا بالغ الدقة ولا تكاد تثبت عليه قدم، إلا قدم من عصم الله سبحانه وتعالى، ولذلك الآيات الكريمة تقول: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾. النور: ٣١

من منا لا يحتاج إلى التوبة، كل منا يحتاج إلى التوبة، صدقوني أننا نحتاج إلى التوبة من سجودنا، نحتاج إلى التوبة من صومنا وحجنا وخمسنا وزكاتنا، أي نفس تلك التي تستقيم تماماً على الدرب حين تسجد لله، ولا تعرف غيره، ولا توقر غيره، ولا تقدس غيره وتحس بأنها لا شيء أمام قدرة الله، وأمام فاعلية الله، وأن المن الكامل لله عليها، تلك نفس نادرة، وحتى هذه المستويات من النفوس إذا لم تبلغ حد العصمة فإن تذبذباً ما قد يصيبها في سجودها، في ركوعها، في قنوتها ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

عن الصادق عليه السلام: "التوبة حبل الله ومدد عنايته، ولا بد للعبد من مداومة التوبة على كل حال، وكل حال، وكل فرقة من العباد لهم توبة...". (٤)

كل فرقة لهم توبة، حتى الأنبياء والمرسلون (صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين)، أنبياء الله، رسل الله لهم توبة، ولكن ليس من المستوى الذي نتصور، إنها التوبة ليس عما يثلم العصمة.

عن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم): "توبوا إلى الله فإنني أتوب كل يوم مائة مرة" (٥)، توبة رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ليس عن الذنب الذي نعرف.

كرم وخير محض

﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾. الشورى: ٢٥

نعم بابه مفتوح للتوبة للعاصين من عباده، الذين عصوه بنعمه، الذين عصوه بقدرة من عنده سبحانه وتعالى بجوارح، بعقل، بإرادة هي معطاة للإنسان بفضل الله سبحانه وتعالى، بأدوات كلها من خلقه سبحانه وتعالى، مع ذلك يبقى بابه مفتوح للظالمين، وللعائدين والآتئين، الذين شطت بهم الطريق، والذين كابروا وعاندوا وكفروا وجدوا بالله العظيم ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾، نحن نستقدر أحدنا صاحبه لجريمة يقف عليها منه.

أنا الذات الملوثة، أنا الذات التي رجست نفسها مليون مرة، حين أقف على معصية لي أستقبح هذه المعصية، أستقدرها يهبط في نظري، يكون الشيء الدوني، الله الكامل سبحانه وتعالى مطلع على كل الأرجاس، على القلوب وما

(٤) المصدر، ص ٥٤٢، عن البحار، ج ٦، ص ٣١. (٥) المصدر عن الكنز في ١٠١٧١.

فيها، على كل جارحة وما تكتسب، على كل جانحة وما تخفق به من خير أو شر.

اسمعوا - أيها الأخوة - عن خير الله، اسمعوا عن الخير المحض سبحانه وتعالى "إن الله تعالى أشد فرحًا بتوبة عبده من رجل أضل راحلته وزاده في ليلة ظلماء فوجدها فالله أشد فرحًا بتوبة عبده من ذلك الرجل براحلته حين وجدها". (٦)

الزاد يهتم به في الصحراء، في المكان الذي لا يوجد زاد، هذه راحلة زاد المسافر عليها، المسافر في صحراء شاسعة، تضيع هذه الراحلة وهي سبب نجاته، ويضيع زاده وهو سبب حياته، وهو على هذه الراحلة في ليلة ظلماء، ويفقد الأمل في أن يعثر عليها كم يألم، وكم يحزن، ثم إذا وجدها كم يفرح وكم يرتفع مستوى مشاعره الطيبة؟

الله عز وجل يفرح بتوبة عبده أكثر من هذا الرجل، والله لا ينفع سبحانه وتعالى، الله عز وجل منزه عن الغضب، منزه عن الفرح، إنما هي تعبيرات مجازية كناية، يكنى به عن أنه يريد لعبده أن يتوب، يعطي عبده من الجائزة ما لا يتصوره أحد، أكثر من ذلك الذي ضاعت راحلته وزاده في الليلة الظلماء، لو أحضرتها له إلى أي حد يحتضنك؟ إلى حد تدخل في قلبه؟ إلى أي حد يفديك بنفسه؟

الله عز وجل يعطي العبد، يكرم العبد، تحتضن رحمته العبد، يحسن للعبد، يوفي جزاء العبد لهذه التوبة، أكثر مما يفعل ذلك الذي توقفت حياته على راحلته وزاده.

(٦) ميزان الحكمة، ج١، ص ٥٤١، عن الكافي، ج٢، ص ٤٣٥.

وهل يصدر ذلك عن حاجة أيها الأخوة؟، الله هو الغني، مع ذلك يفعل بك حين تتوب هذا الفعل، فهو خير محض سبحانه وتعالى "إن الله تعالى أشد فرحاً بتوبة عبده من رجل أضل راحلته وزاده في ليلة ظلماء فوجدها فالله أشد فرحاً بتوبة عبده من ذلك الرجل براحلته حين وجدها".

كيف نتوب؟

﴿وَأِنِّي لَفَغَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى﴾. طه: ٨٢

"التائب إذا لم يستين أثر التوبة فليس بتائب: يرضي الخصماء، ويعيد الصلوات، ويتواضع بين الخلق، ويتقي نفسه عن الشهوات، ويهزل رقبته بصيام النهار". (٧)

وكما هو مثبت هنا في مصدر ثانوي "التوبة على أربعة دعائم: ندم بالقلب، واستغفار باللسان، وعمل بالجوارح، وعزم على أن لا يعود". (٨)

متى نتوب؟

﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كَفَارٌ أَوْلَتْكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾. النساء: ١٨

﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَٰئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾. النساء: ١٧

سئل الصادق عليه السلام: ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ...﴾ الآية الكريمة السابقة.

(٧) ميزان الحكمة، ج ١، ص ٥٤٨، عن البحار، ج ٦، ص ٢٥. (٨) المصدر عن البحار، ج ٧٨، ص ٨١.

ما معنى ذلك؟ قال الصادق عليه السلام فيما عليه الرواية: " ذلك إذا عاين أمر الآخرة". (٩)

وفي حديث آخر عن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم): " إن الله يقبل توبة عبده ما لم يفرغ... ".

لكن أندري متى نفرغ؟

أندري متى نعاين الآخرة؟

أندري متى سيحدث لنا حادث اصطدام سيارة؟

أندري متى تأتي نوبة قلبية قاتلة؟

أندري متى يأتي حادث يصفي حياتنا في لحظة؟

إن لحظة الفرغرة لحظة متوقعة في كل آن، ولذلك تقبل التوبة الآن قبل فوات الأوان.

قد لا يوفق العبد للتوبة!

فالحذر الحذر... "أبى الله لصاحب البدعة بالتوبة". (١٠)

لا يكون بالضرورة أن معنى الحديث أن الله عز وجل لا يقبل توبته وإنما بما كسبت يده وهذا خذلان جزائي، يعني لا يأتي توفيق من الله له بأن يتوب، وعدم هذا التوفيق ليس من شح لدى الله عز وجل، إنما هو العدل الإلهي، ذلك أنه حطم، هدم في دين الله، هدم دين الله، وأغوى وأضل خلقاً كثيراً من خلق الله، حجب الناس عن طريق الله، عن طريق سعادتهم، هو واحد ومن أضل الكثير، فما جزاء هذا الواحد؟ أن يعود ويوفق للجنة، فليذهب حقيراً إلى النار.

"أبى الله لصاحب البدعة بالتوبة".

(٩) ميزان الحكمة، ص ٥٤٥، عن البحار، ج ٦، ص ١٩.

(١٠) ميزان الحكمة، ج ١، ص ٣٨٤، عن البحار، ج ٧٢، ص ٢١٦.

تلخيص

فإن التوبة تعني الانقلاب في الداخل، تعني الانقلاب في الرؤية، العاصي يرى أن خير نفسه في المعصية، ونظراته زائغة، نظراته ضاله، مشاعره، مشاعر الحب عنده مرتبطة بالمعصية، جدّه وسعيه وعلاقاته وإمكاناته كلها موظفة من أجل المعصية، الآن يحدث انقلاب هائل في داخل الذات فتتغير النظرة إلى ما هو خيرٌ وما هو شر، فتري النفس أن ما من خير إلا في طاعة الله، وأن ما من شر إلا في معصية الله، فتثور فيها المشاعر منقلبة، ويأتي السلوك موافقاً للشعور الجديد وللوعي الجديد، وللصحوة وحيويتها الفاعلة، هي هذه التوبة، وحين يحصل الندم الحق لسابق المعصية نجد لذلك أثراً خارجياً من تغير السلوك و تغير الاتجاه، ويتغير كل شيء في هذا، يصبح المسجد بعد أن كان عدواً صديقاً، يتبدل مكان اللهو والعبث إلى مكان العبادة والطاعة والتهجد، الأصدقاء يتبدلون، المكانات المرتادة تتبدل، كل شيء في الخارج يتبدل في هذا الإنسان عندئذ يعرف من نفسه أن قد تاب، إذا لم يحدث عنده ذلك فليكذب ما يتصوره من نفسه أنه توبة.

كلمات قصيرة في المعصية نوعاً، ومصادقاً

١- في كل معصية توثيق للعلاقة مع الشيطان، ومفارقة لخط الله سبحانه، وفيها فقد نور، ثلثة في الكرامة، هبوط في المستوى، ضعف مناعة، بُعد عن الجنة، قرب من النار.

٢- أيام المعصية أيام للجدد ولكن على طريق النار.

٣- الإنسان قبل المعصية وزن من إنسانية، وقوة إرادة، وكرامة، وهدى، وإيمان، ونور، وهو بعدها وزن أقل في ذلك إلا أن يتدارك أمره بالتوبة.

٤- كأن المتعدّي على عرض غيره يقول للناس بأن لا مانع عنده من تعدّي الآخرين على عرضه، المتعدّي على عرض غيره يفتح باباً للتعدّي على عرضه.

٥- من عزّ عليه عرضه عزّت عليه أعراض الناس، ومن هان عليه عرض غيره هان عليه عرضه.

٦- يُطمع مرضى القلوب من المرأة أقل ما يشم منه بأنها لا تعتزّ بعفافها.

٧- الصبيّة والصبايا من أشد ما يحتاجون إليه الحماية من ذئاب الجنس الحرام وكلابه.

٨- فاحشة الزنا واللواط قبيحتان شنيعتان عند الله سبحانه دلّ على ذلك حدّهما المغلّظ في الإسلام، وتقبيحهما الشرعي الشديد.

٩- الفواحش لا تُتجّب أجواؤها أمةً كريمةً، ولا تثبت جيلاً من كبار النفوس، وأصحاب العزائم، فمن أراد أن يهدم أمته فليُنشر هذه الرذائل.

١٠- لمعالي الأمور طريق، وللفواحش طريق، وأحدهما لا يلتقي أبداً مع الآخر.

١١- الفاحشة ممارسةٌ دنيئةٌ يَخْبُو منها نورُ الرُّوحِ ويضؤل ويتوارى حتى ينطمس.

١٢- يسهل الدخول في نفق المعصية المظلم، ولكن قد يعسر جداً أن يخرج منه داخله، ويُحرّم توفيقَ التوبة.

وهذه كلمات قصار سريعة في التوبة

١- التوبة عودة عقل، وقلب، وضمير، وإرادة من الخطأ إلى الصواب، ومن السفه إلى الرشd، ومن الجهل إلى الحكمة، ومن الكبوة إلى النهضة، ومن الموت إلى الحياة.

٢- التوبة ثورة منطلقها الوعي والنضج والصحو على ضعف الذات وهزيمتها أمام عوامل الغواية والانحراف.

٣- التوبة انتصار كاسح لقوى الخير في الذات، وتقلت من قبضة الشيطان، وحبائل النفس الأمارة بالسوء.

٤- التوبة وضع حد لحالة التدهور في المستوى الإنساني عند صاحب المعصية في لحظة من الانتصار للذات.

٥- يعود العاصي بتوبته الصادقة نظيفاً بعد قذارته، طاهراً بعد رجسه، مرحباً به عند المؤمنين بعد طرده.

٦- التوبة بعد الفسق تدشين لرحلة الصعود، والفسق بعد الطاعة تدشين لرحلة السقوط.

٧- وراء كل معصية هزيمة للنفس.

التوبة عودة عقل، وقلب،
وضمير، وإرادة من الخطأ
إلى الصواب، ومن السفه إلى
الرشد، ومن الجهل إلى الحكمة،
ومن الكبوة إلى النهضة، ومن
الموت إلى الحياة.

التوبة ثورة منطلقها الوعي
والنضج والصحو على ضعف
الذات وهزيمتها أمام عوامل
الغواية والانحراف.



نرحب بتواصلكم معنا، وبكل ملاحظاتكم واقتراحاتكم:

مبنى: ٤٠، طريق ٤٨، مجمع ٤٤٤، هاتف: ١٧٥٩٢٦٧٢ فاكس: ١٧٥٩٦٥٤٠، الإدارة النسوية: تليفاكس: ١٧٥٩٢٦٧٢
حلة العبد الصالح، مملكة البحرين - الموقع الإلكتروني: www.olamaa.net البريد الإلكتروني: info@olamaa.net

